الحلقة الحادية عشرة

يعقوب يشم رائحة يوسف من مسافة ألف ميل

يعود إليه بصره

أبناؤه يطلبون منه أن يستغفر لهم

آل يعقوب جميعاً فى مصر

يوسف يرفع أبويه على عرش مصر

تفسير رؤيا يوسف القديمة

بسجود أبويه وإخوته له

يشكر ربه ويتضرع إليه

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الحادية عشرة

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾

أشعار الحلقة الحادية عشرة

هذا هُو الصِّدِيقُ يوصِى الإخوةَ المتسَمعين ١
أن يذهبُوا بقميصه لأبيه ، كانوا طائعين ٢
سمعُوا وصيتَه وعادوا بالقميصِ مسَارعين ٣
وقلوبُهم ملأى بفرْحٍ ، لم يعودُوا خائبين ٤
يعقوبُ لا ينفَكُ مع أحزانه لا يستكين ٥
لم ينسَ يوسفَ أو أخَاه ، وإنه باكٍ حزين ٦
أبناء يعقُوب تولوْا بالأمانى عائدين ٧
وهناكَ يعقوبٌ يعيشُ مع البكاء مع الأنين ٨
ريحُ الحبيبِ تجيئُه من ألفِ ميلٍ كاملين ٩
جاءتْهُ يحملُها النسيمُ بأمرِ ربٍّ العالمين ١٠
هَذى لعمرُ الله إحدَى معجزاتِ المرسَلين ١١
إذ قالَ فيمَن حولَه : كونُوا لقولى مدركين ١٢
إنى أشُمّ لريحِ يوسفَ فى الركَابِ القادمين ١٣
لا تنكِروا قولِى ، وكونُوا بالمقالةِ موقنين ١٤
لولا ملامَتُكم لقلتُ مؤكِّدًا : هذا يَقين ١٥
كانتْ إجابتُهم كلامًا فيه عُنْفُ اللائمين ١٦
تالله إنك لا تزالُ على ضلالِ التائهين ١٧
هل لا تزال لذكرِ يوسفَ بعد عشراتِ السنين ؟! ١٨
قد صَار يوسفُ دون شكّ فى عِدادِ الغابرين ١٩
فلتنسَهُ كى تستريحَ ، وكن من المتجَلدين ٢٠
العيرُ قد وصلتْ لحيثُ الأهلُ كونوا نازلين ٢١
جاءَ القميصُ مع البشيرِ ، وفرحةٌ فى القادمين ٢٢
ألقى القميصُ عليه أصبحَ فى عِدادِ المبصِرين ٢٣
الشيخُ يشكرُ ربَّه شكرَ الرجالِ العارفين ٢٤

ويوجهُ القولَ العنيفَ إلى بنيه السامعين ٢٥
أفَقَدْ رأيتُم أن قولي كلّه صدقٌ مُبين ؟! ٢٦
فَلكَمْ سخِرتُم من مقَالي ، لم تكُونوا مُوقنين ٢٧
أفلمْ أقلْ : إني علَى علمٍ ، ولستُم عَالمين ؟! ٢٨
قالوا : صدقتَ ، فإننا كنا جميعًا جاهلين ٢٩
من بعد أن قَالوا : صدقتَ ، تسَاءلوا متوسلين ٣٠
قالوا : فإنكَ يا أبانَا ، في عِداد المرسَلين ٣١
ولأنتَ أيضًا مستجابٌ في دعاءِ الضَّارِعين ٣٢
فاستغفِر المولى لنا ، فلقد غدونا نادمين ٣٣
اللهُ غفَّارٌ يحبُّ النادمين التائبين ٣٤
الشيخُ قالَ لهم : عفوتُ ، فلا تكُونوا خائفين ٣٥
ولسوفَ أطلبُ من إلهي في دجَى الليلِ السكين ٣٦
أن يغفرنَّ ذنوبكُم كيْ تصبحُوا متطهرين ٣٧
ولقدْ توجَّهَ ضارِعًا لله ربّ العَالمين ٣٨
ربّاهُ فاقبلْ دعوتي ، إني عفوتُ عن البنين ٣٩
يعقوبُ معَ أولادِه صاروا معًا متآلفين ٤٠
الحب صار يسودهم كانوا معًا متباعدين ٤١
قَالوا : فهيَّا يا أبانا ، نأتِ أرضَ الخالدين ٤٢
هيا إلى مصرَ العزيزةِ موطنِ المتحضّرين ٤٣
النيلُ أعطَى أهلَها أمنًا ، فعاشُوا راغدين ٤٤
فيهَا حبيبُك يوسف ، هو خازنُ المالِ الأمين ٤٥
قد قالَ : هاتوا لي أبي ، والأهلَ كُلاً مسرعين ٤٦
يعقُوبُ مع أبنائه قد قرَّروا متكاملين ٤٧
أن يرحَلوا عن أرضِهم ، أرضِ الجدودِ الأولين ٤٨
تركُوا منازلَهم لأرضِ النيلِ صَاروا ذاهبين ٤٩
وصَلوا هنالكَ حيثُ كانَ الحبُّ وضَّاءَ الجَبين ٥٠
دخلوا على الصِّديقِ قد كَانوا له متشَوقين ٥١

أعطَى إلى أبويهِ قُرْبًا ، ثم برّ المؤمنين ٥٢
بل قالَ : مرحى ، فادخلوا مصرَ العزيزَة آمنين ٥٣
لما اطمأنُّوا إذ بهم خرُّوا جميعًا ساجدين ٥٤
كان السجُود تحيةً ، لا ، لم يكونوا عابدين ٥٥
أو ربّما سجَدوا لربِّ العرشِ سجدةَ شاكرين ٥٦
العرشُ قد جلسُوا عليهِ ، بأمرِ يوسفَ عن يقين ٥٧
لما رآهُم يوسفٌ سجَدوا سجودَ الخاشعين ٥٨
هتفتْ خواطرُه ببعضِ الذكرياتِ السابقين ٥٩
فتذكَّرَ الرؤيا التى أودتُه للكيدِ المشين ٦٠
مِن ثَم قال مخاطبًا لأبيه بالقولِ المبين ٦١
هذى هى الرؤيا القديمةُ فُسّرتْ للعَالمين ٦٢
رؤياى كانتْ يا أبى حقًا شبيهًا باليقين ٦٣
قد تمَّ ما قدْ شاءه المولَى ، وكنَّا غافلين ٦٤
اللهُ أكرمَنِى فأخرجَنِى من السِّجنِ المهين ٦٥
أيضًا وجاء بكُم ، وكنتُم فى البداوةِ ماكثين ٦٦
قد كانَ للشيطانِ نزغٌ فى قلوبٍ مظلمين ٦٧
بينى وبينَ بنِى أبِى ، قد كانَ نزغٌ للعين ٦٨
حمدًا إله العرشِ إنك ناصرُ المستضعَفين ٦٩
أنتَ اللطيفُ لما تشاءُ وراحمُ المسترحمين ٧٠
أعطيتنِى مُلكًا وفضلاً ، فوقَ حُلْمِ الحَالمين ٧١
أعطيتَنى علمًا لتفسيرِ الرؤَى للنائمين ٧٢
يا خالقًا لسمائنا ولأرضنا والعَالمين ٧٣
أنت الولىّ وملجَأى ، لا شكَّ فى دنيَا ودين ٧٤
يا رب خذنِى مسلمًا وتوفنى فى الصالحين ٧٥

أبناء يعقوب يعودون فرحين بقميص يوسف

هذا هُو الصِّدِيقُ يوصِى الإخوةَ المتسَمِّعين ١
أن يذهبُوا بقميصه لأبيه ، كانوا طائعين ٢
سمعُوا وصيتَه وعادوا بالقميصِ مسَارعين ٣
وقلوبُهم ملأى بفرْحٍ ، لم يعودُوا خائبين ٤
يعقُوب لا ينفكّ مع أحزانِه ، لا يستكين ٥
لم ينسَ يوسفَ أو أخَاهُ ، وإنه باكٍ حَزين ٦

أما يوسف الصديق ، فإنه أبدى لإخوته تسامحًا ووداً . . لقد عفا عنهم ، وهو فى مركز القوة ، بحيث يستطيع أن ينكل بهم ـ بإشارة منه لمعاونيه ـ ردًا على صنيعهم المشين معه ، حينما كان صغيرًا ضعيفًا وحيدًا ، وقد كانوا أكبر منه سنًا ، وأقوى . . ! ويؤكد تسامحه لهم ، أنه أعطاهم قميصه وقال لهم : اذهبوا إلى أبى ، الذى أضناه الشوق ، وهدته الأحزان ، وفقد نور عينيه حزنًا على فراقى ، وفراق أخى بنيامين . ألقوا هذا القميص على وجه أبى ، يرتد إليه بصره ، سوف يبصر كما كان من قبل . . !! وهنا لابد من جواب ، على سؤال يطرح نفسه ، من خلال الحوار الذى دار بين يوسف وبين إخوته . . هذا السؤال هو ! ما الذى أدرى يوسف ، بأن أباه صار أعمى لا يبصر ؟! آيات القرآن الكريم ، لم تذكر شيئًا عن هذا ، وأيضًا لم يَدُر بينه وبين إخوته حوار عن أبيهم ، وعن أحواله . . إذن فمن أين علم يوسف ، بأن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن عليه ؟! لا جواب من واقع الآيات القرآنية ، على هذا السؤال . . ولا يوجد دليل من سنة رسول الله ﷺ . ولا أخال يوسف أخذ علمه بفقد بصر أبيه ، إلا من جهة عليا . . إنها شفافية النبوة ، ولا شىء غير هذا . . !! أخذ أبناء يعقوب قميص يوسف ، وعادوا أدراجهم مسرعين ، نحو وطنهم . . يريدون أن يطيروا بغير أجنحة ، الفرحة تملأ قلوبهم . لقد تبينوا الآن فقط أن أباهم كان على صواب ، حينما قال لهم : ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ . إنهم يستحثون الإبل ، لتسرع الخطى . . لأنهم يحملون معهم ما يدخل الفرحة والسرور على قلب أبيهم ، الذى أضناه الحزن والشوق على يوسف وأخيه . . ولا غرو فسرور أبيهم ، سرور لكل آل يعقوب . وبينما هم فى طريق عودتهم ، كان يعقوب عليه السلام ، قابعًا فى خلوته مع أحزانه ، منطويًا على نفسه ، لا يتحدث إلى أحد . . ولا يتحدث إليه أحد .

رائحة القميص تصل يعقوب

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾

أبناءُ يعقوب تولّوْا بالأمانى عائدين ٧
وهناكَ يعقوبُ يعيشُ مع البكاءِ مع الأنين ٨
ريحُ الحبيبِ تجيئُه من ألفِ ميلٍ كاملين ٩
جاءتْه يحملهَا النسيمُ بأمر ربّ العَالمين ١٠
هذِى لعمرُ اللهِ إحدى معجزاتِ المرسَلين ١١

ما فى ذلك من شك أن يعقوب عليه السلام، عاش السنين الطويلة الماضية مع الأحزان، حتى صارت سمة له عرف بها ، فلا تراه باسمًا مطلقًا ، وإذا ما تحدث ، فحديثه ممزوج بالمرارة والأسى ، تبدو على محياه ظلال من الكآبة . بينما هو فى أحزانه التى ألفها، فجأة شعر بنشاط يدب فى أوصاله، فهب قائمًا، خرج من معتكفه الذى كان قابعًا فيه مع أحزانه، خرج إلى صحن المنزل يستنشق الهواء . . كى يملأ صدره به ، وقد رآه كل من فى المنزل ، يتلفت يمنة ويسرة ، كأنه مبصر يبحث عن شىء ما . الواقع أن شيئًا ما ، جعل هذا الشيخ يخرج من معتكفه الذى كان قابعًا فيه منذ سنين طويلة مع أحزانه التى ألفها . نعم، لقد أحس الشيخ، بشىء خفى، أجرى فى عروقه وأوصاله نشاطًا ملحوظًا . . نعم، إنه شعر برائحة ملأت حاسة الشم لديه، رائحة زكية محببة، إنه يعرف هذه الرائحة، ويعرف مصدرها، بيد أنها انقطعت عنه منذ بعيد ، منذ أن غاب عنه يوسف . . بالله!! هل للإنسان رائحة تشم من البعد البعيد ؟! لقد جاءته رائحة يوسف ، منبعثة من القميص الذى تحمله القافلة ، والقافلة كانت لا تزال تغذ السير ، متجهة إلى أرض كنعان ، بيد أنها لما تبرح حتى الآن حدود أرض مصر . . فكانت لمسافة أكثر من ألف ميل ، وكان القميص مخبوءًا على ظهور الإبل بين الأوعية ، فكيف خرجت رائحته فوصلت يعقوب عليه السلام فى معتكفه؟! أمام هذا الأمر ، ينبغى أن نقف خاشعين . . فتلك لعمر الله قدرة الإله العظيم ، ولله عز وجل ألطاف خفية ، لا تستند إلى القوانين التى نتعامل بها ، بل نستند إلى العظيم الذى يقول للشىء كن فيكون . . ولا غرو فيعقوب عليه السلام، نبى مرسل، ويوسف نبى مرسل، وكلاهما على صلة وثيقة بوحى الإله الذى يأتى بأخبار الغيب. قال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن] .

يعقوب يعلن : إنى لأجد ريح يوسف

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾

إذ قالَ فيمنْ حولَه : كونوا لقولِى مدركين ١٢
إنى أشُمّ لريحِ يوسفَ فى الركَابِ القادمين ١٣
لا تنكِروا قولِى ، وكونوا بالمقالةِ موقنين ١٤
لولا ملامتُكمْ لقلتُ مؤكّدًا : هذا يَقِين ١٥

لقد تأكد نبى الله يعقوب عليه السلام ، أن الرائحة التى هبت عليه ، وملأت حاسة الشم لديه ، هى رائحة يوسف ولده ، ما فى ذلك من شك . إن تأكده من ذلك ، كان من حدسه ، أو من الجهة العليا التى لا تنفك تمده بصادق المعلومات التى لا يتسرب الشك إليها . . لقد اطمأن إلى أن هذه هى رائحة يوسف ، فمن ثم هتف قائلاً : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ . كل من فى البيت ، سمعوا ما قاله الشيخ ، أصيبوا بالدهشة ، تساءلوا فيما بينهم قائلين : ماذا يقول الشيخ ؟! شعر الشيخ أنهم يتهامسون، فى غرابة وارتياب، فكرر قوله للمرة الثانية ، ليتأكدوا مما سمعوه ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾** ﴾ أى لا تسخروا منى ، لا تنكروا منى هذا القول ، لا تظنوا بى الظنون ، فأنا بكامل قواى العقلية ، لم أفقد صوابى ، إنكم تشكون فى قولى هذا ، وسوف تفسرونه حسب تصوراتكم التى بنيتموها على حسابات خاطئة . . إلا أننى أؤكد لكم ، أن هذا الذى أقوله ، هو حق صواب .

قال الفخر الرازى : واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة إليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص ، ففاحت روائح الجنة فى الدنيا ، واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم عليه السلام أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة ، إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « أما كيف وجد يعقوب ريح يوسف فى هذا القميص ، على هذا المدى البعيد ، الذى أحد طرفيه مصر ، وطرفه الآخر كنعان ، فإن هذا السؤال يرد على أى قميص ، سواء أكان القميص الذى يقال إنه قميص إبراهيم ،

أم قميص آخر . والذى علينا ، هو أن نصدق يقينًا ، بأن يعقوب قد وجد ريح يوسف من مصر ، أما هذه الريح التى وجدها يعقوب ، فهى إما أن تكون ريحًا شمها فعلاً بأنفه على الحقيقة ، كما تُشم أرواح الأشياء ذات الريح ، وإما أن تكون هذه الريح مشاعر وخواطر مثلت له يوسف مقبلاً عليه أشبه بالطيف الزائر فى المنام ، أو الخاطر المسعد فى اليقظة ، وذلك كله من ألطاف الله تعالى بيعقوب ، ومن إشراق نفسه الصافية ، وانطلاق الروح من قيود المادة والجسد » القصص القرآنى .

قال صاحب كتاب: « تأملات فى سورة يوسف » :وما معنى قول يعقوب : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ معناه أن يوسف حى يرزق ، بل معناه أن ريحه متجهة إليه ، بل إنها ليست بعيدة منه .وإذا كان كل ذلك يفهم من كلامه ضمنًا، فإن الجزئية التالية ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قوة لما سبقها على ذلك الفهم إذ أنها تكاد تكون قولاً صريحًا، بقرب لقائه بابنه الحبيب، يوسف ، ولولا خوفه من نسبة آله له إلى ضعف الرأى ، لصرح بذلك . فإنى معنى هذه الجزئية ﴿ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ لولا خوفى من نسبتكم الخرف لى، لكان لى تعبير أكثر صراحة ووضوحًا ، ولقلت لكم ، قد حانت ساعة لقائى بابنى الحبيب يوسف ، بعد طول غياب ، والله أعلم .

يعقوب يتهم بالضلال والخطأ

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

كانتْ إجابتُهم كلامًا فيه عُنْفُ اللائمين ١٦
تالله إنكَ لا تزالُ على ضلالِ التائهين ١٧
هل لا تزالُ لذكرِ يوسفَ، بعدَ عشراتِ السنين ؟! ١٨
قد صارَ يوسفُ دون شك في عدادِ الغابرين ١٩
فلتَنْسَهُ كي تستريحَ ، وكنْ من المتجَلدين ٢٠

لما أعلن يعقوب عليه السلام، فيمن حوله من أهل بيته، من النسوة والأولاد قائلاً: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ . لم يخف أهل بيته استنكارهم لهذا القول، الذى اعتبروه هذرًا، وسفهًا من الرأى، بل أظهروا له ما كانوا يتهامسون به ، فيما بينهم عنه . كانوا يقولون عنه: إنه شيخ ضال، من شدة الأحزان ، فقد رشده ، فصار يهذى، لا يدرى ما يقول . . وها هم الآن ، يؤكدون هذا المعنى فيقولون : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾. أى كف أيها الشيخ عن ذكر يوسف ، لأن ذلك يسبب لك الضيق والآلام ، فانسه واترك الأمر ، وتذرع بالصبر ، لأن يوسف قد ذهب ، منذ عشرات السنين ، ألا يكون ذلك دليلاً على أنه هلك ، وأصبح فى عداد الغابرين ؟!

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « قالوا - أى الحاضرون - ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ . أى لفى ذهابك عن الصواب قدمًا ، بالإفراط فى محبة يوسف ، وإكثار ذكره ، والتوقع للقائه ».

قال ابن كثير فى تفسيره: « وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم .

وقال قتادة: أى من حب يوسف: لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم: ولا لنبى الله ﷺ . وكذا قال السدى وغيره» .

قلت : الذين قالوا ليعقوب : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ ليسوا أولاده ، وإنما هم نساء أولاده ، وأولادهم ممن هم فى البيت أيضًا . . ذلك لأن يعقوب قال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قبل وصول القافلة التى فيها أولاده ، ومعهم قميص يوسف الذى انبعث منه الرائحة . وأرى أن الذين نسبوا هذه الجملة « إنك لفى ضلالك القديم » لأبناء يعقوب ، بأنهم قالوها لأبيهم : قد جانبهم الصواب .

يعقوب يعود إليه بصره

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

العيرُ قد وصلتْ لحيثُ الأهلُ كونوا نازلين ٢١
جاءَ القميصُ مع البشيرِ ، وفرحةٌ فى القادمين ٢٢
ألقى القميصُ عليهِ أصبحَ فى عِدادِ المبصرين ٢٣
الشيخُ يشكرُ ربَّه شكرَ الرجالِ العارفين ٢٤

لقد وصلت القافلة أرض كنعان فى الشام ، إلى المكان الذى فيه مساكن آل يعقوب.. وقد كان أبناء يعقوب ، فى الوقت نفسه مملوئين فرحة وسرورًا ، لماذا ؟! لأنهم يحملون معهم ما فيه سعادة لأبيهم ، ويدخل السرور على قلبه .. فهم لم يروه مبتسمًا منذ أن غاب يوسف .. أما الآن فسوف يبتسم .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، فإن حالهم سوف يتبدل من الشقاء إلى السعادة ، ومن شظف العيش إلى رغده، ومن الأحزان إلى الأفراح .هذا كله سوف يكون بسبب لقائهم بيوسف ، إنه الضالة المنشودة ..لسوف تضحك لهم الحياة بعد عبوسها .

أحد أبناء يعقوب،تباطأ سير الإبل ، فأخذ القميص ـ عندما اقتربوا من قريتهم ـ وانطلق يسابق الريح ، عدوًا على رجليه ، بشيرًا كى يبشر أباه ، كما هى العادة عند أهل البادية ، وأهل الحضر أيضًا : دخل البشير على أبيه فى معتكفه القابع فيه .. والذى قضى فيه سنىّ أحزانه .. فألقى قميص يوسف على وجهه .. فورًا ارتد إليه بصره .. يا الله!! لقد تم هذا بسرعة ، كان أشبه بمصباح كهربائى غير مضاء ، فضغط بأصبعه على مفتاح الإضاءة،فأضاء .

فكأن يعقوب عليه السلام، لم يكن طوال المدة الماضية ، أعمى لا يبصر! بل كان مغمضًا عينيه فقط ، فلما ألقى القميص على وجهه،فتح عينيه، فأبصر .. من ثم فإننا لا نستطيع أن نفسر هذا بأفهامنا المادية القاصرة .. لأنه أمر يجرى بقوانين غير القوانين التى نحتكم إليها نحن .. إنها علاقة بين نبيين كريمين .. قد يكون بينهما تراسل روحى ،

ولدى كل منهما علم من الله لدنّى . علم من الله ليوسف بأن قميصه سوف يعيد إلى أبيه بصره ، بمجرد إلقائه على وجهه ، وعلم من الله ليعقوب أوصل له ريح القميص، من مسيرة ألف ميل !!

قال الفخر الرازى : قال جمهور المفسرين : البشير هو يهوذا ، قال : أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت : إن يوسف أكله الذئب ، فأذهب اليوم بالقميص ، فأفرحه كما أحزنته .

قوله تعالى : ﴿ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أى طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو يقال : ألقاه يعقوب على وجه نفسه قوله تعالى : ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ أى رجع بصيراً ، ومعنى الارتداد ، انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها .

واختلفوا فيه فقال بعضهم : إنه كان قد عمى بالكلية ، فالله تعالى جعله بصيراً فى هذا الوقت .

وقال آخرون : بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان ، فلما ألقوا القميص على وجهه ، وبُشِّر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه ، وانشرح صدره، وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه .

يعقوب يعنف بنيه

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾

ويوجهُ القولَ العنيفَ إلى بنيهِ السامعين ٢٥
أفَقَدْ رأيتُم أن قولِى كلّه صدقٌ مُبِين ؟! ٢٦
فَلكَمْ سخِرتُم من مقَالى ، لم تكُونوا مُوقنين ٢٧
أفلمْ أقلْ : إنى علَى علمٍ ، ولستُم عَالمين ؟! ٢٨
قالوا : صدقتَ ، فإننا كنا جميعًا جاهِلين ٢٩

يعقوب عليه السلام ، فتح عينيه وأبصر ، بعد عمى حقيقى . . لقد رأى أولاده ، والبشر يكسو محياهم ، والبسمة على شفاههم . . وكلمات تتردد على ألسنة الجميع ، حول هذا الحدث العظيم . . أخيرًا لقد غشيت الفرحة هذا البيت ، بعد أن كان الغم والحزن يخيمان عليه ، لسنين طويلة . بيد أن يعقوب عليه السلام ، برغم الفرحة الغامرة التى ملأت قلبه ، وقلوب بنيه أيضًا ، لم ينس أن يذكّر أبناءه بموقفهم منه . . وعدم تصديقهم كلامه فيوجه حديثه لهم ، معنفًا مؤنبًا فيقول :هل ثبت لديكم الآن ، أننى كنت صادقًا فى كل كلمة قلتها لكم ؟! هل أيقنتم أيضًا ، أننى على علم من الله لا تعلمونه أنتم ؟! لم يستطع أحد منهم أن ينبس ببنت شفة . . سلبًا أو إيجابًا ، معترضًا أو مسلمًا بكل ما يقوله أبيهم . أخيرًا وجدوا أنفسهم صامتين ، بينما أبوهم يتساءل ، إذن فينبغى أن يجيبوا على تساؤلات أبيهم . . فمن ثم هتفوا جميعًا قائلين : صدقت يا أبانا ، فنحن قد كنا أقل وأجهل من أن نتطاول بإدراكنا وأفهامنا ، إلى مقام إدراكك وعلمك ومعرفتك .

قال ابن كثير فى تفسيره : وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)** ﴾ أى : أعلم أن الله سيرده إلى .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)** ﴾ من حياة يوسف عليه السلام وإنزال الفرج » .

وقال الفخر الرازى : والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا ، لأن هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم ، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ .

قلت : ما قاله الفخر الرازى فى هذا المعنى : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ هو أقرب الأقوال إلى الصواب، وأميل إليه، ذلك لأن الرؤيا التى رآها يوسف الصديق فى صغره ، رؤيا صادقة وحق ، ومن ثم فلابد من تأويلها يومًا ما ، بيد أن تأويلها لما يأت بعد . من هذا المنطلق ، كان يعقوب متأكدًا من حياة يوسف ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن يعقوب عليه السلام نبى مرسل ، وله مع خالقه العظيم صلة قوية، فليس بمستبعد أن يكون الله عز وجل أخبره بأن يوسف لم يمت ، وهو لما يزل حيًا .

أبناء يعقوب يستعطفون أباهم

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) ﴾

من بعد أن قَالوا : صدقتَ ، تسَاءلوا متوسلين ٣٠
قالوا : فإنكَ يا أبانَا ، فى عِداد المرسَلين ٣١
ولأنتَ أيضًا مستجابٌ فى دعاء الضَّارعين ٣٢
فاستغفِر المولى لنا ، فلقد غدونا نادمين ٣٣
اللهُ غفَّارٌ يحبُّ النادِمين التائبين ٣٤

أبناء يعقوب الآن فى حالة سعادة غامرة ، فقد انقلب البيت كله من حال إلى حال، من الكآبة والحزن ، إلى الابتسامة والفرح . إنهم فرحون ، والفرحة تغمرهم ، وتملأ قلوبهم ، وذلك بما طرأ عليهم من واقع الحدث الجديد . . هذا الحدث ، سوف تتغير فى ظله حياتهم ، من البؤس والشقاء إلى الأمل ، إلى الاطمئنان ، إلى رغد العيش ، إلى السعادة والراحة . بيد أنهم فى غمرة هذا الفرحة ، لم ينسوا ما فعلوه فى حق يوسف أخيهم ، وبالتالى كذبهم على أبيهم ، بأن الذئب قد أكله . إن شبح هذه الجريمة، يبرز فى خاطر كل منهم ، فينغص عليه فرحته ، فماذا يصنعون ؟! لقد تنادوا ، ثم انتحوا جانبًا ، ليقول كل منهم للآخرين : ما يحس به ، فإذا هم جميعًا فى أحاسيسهم سواء. .فاتفقوا على شىء واحد، هو : أن يسألوا أباهم ، ويتوسلون إليه ، أن يستغفر لهم ذنوبهم ، ويتضرع إلى ربه أن يغفر لهم فقالوا لأبيهم فى ضعف واستعطاف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) ﴾ . يا أبانا ! إننا نقر ونعترف بين يديك ، بأننا قد أخطأنا فى حقك بالكذب عليك ، وأجرمنا فى حق أخينا يوسف ، بإلقائه فى الجب . . لا عذر لنا فى هذا ، فاغفر لنا ، واعف عنا ، لقد كنا ضحية كيد الشيطان . . لقد لعب برؤوسنا ، فزين لنا ما فعلناه. لذلك ، فإننا نسألك يا أبانا ، بما أودع الله فى قلبك من حنو وحنان ، وتقوى وإيمان ، أن تلجأ إلى مولاك ضارعًا ، وتستغفر لنا ، عساه أن يقبل توبتنا ، وندمنا ، فأنت نبى ، ومستجاب الدعاء والله عز وجل غفور رحيم ، يغفر للمستغفرين ، ويقبل التائبين ويحبهم .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : «ومن حق المعترف بذنبه ، أن يصفح عنه ، ويُسأل له المغفرة » .

يعقوبُ يستغفرُ لبنيه

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾

الشيخُ قالَ لهم : عفوتُ ، فلا تكُونوا خائفين ٣٥
ولسوفَ أطلبُ من إلهى فى دجَى الليلِ السكين ٣٦
أن يغفرنَّ ذنوبكُم كىْ تصبحُوا متطهرين ٣٧
ولقدْ توجَّهَ ضارعًا لله ربّ العَالمين ٣٨
ربّاهُ فاقبلْ دعوتى ، إنى عفوتُ عن البنين ٣٩

لقد أحسن نبى الله يعقوب عليه السلام بما يعانيه بنوه من الذلة والإنكسار، إن الخزى والندم يخيمان عليهم، حتى وجوههم، لتبدو كئيبة من هول ما يجول فى أعماقهم، من شعور بالإحباط والضآلة فى هذا الموقف . فقال لهم أبوهم مواسيًا مطمئنًا : اطمأنوا ، لقد عفوت عنكم، فلا تخافوا . أنتم أبنائى، ويسوؤنى ما يسوؤكم . . ويسرنى ما يسركم . . فأبشروا وابتهجوا ، ولا تجعلوا شبح الماضى ، يعكر صفو هذا اليوم ، الميمون المبارك .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ . سوف أطلب من المولى عز وجل ، أن يغفر لكم ذنوبكم ، ويطهركم من خطاياكم، وذلك حينما يذهب ثلثا الليل ، لأن ذلك هو وقت الإستجابة . وفعلاً لقد انتظر يعقوب عليه السلام ، ذهاب معظم الليل ، فوقف بين يدى ربه ضارعًا داعيًا، سائلاً مولاه أن يغفر لبنيه ، وأن يتجاوز عنهم ، ويختتم دعاءه قائلاً : رباه ! إنى عفوت عن أبنائى ، غفرت لهم ، فاعف عنهم واغفر لهم . . إنك أنت الغفور الرحيم.

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ أى: من تاب إليه ، تاب عليه .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى ، وعمرو بن قيس ، وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر .

وعن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه ، قال ابن كثير فى هذا الحديث : وفى رفعه نظر ، والله أعلم . . عن تفسير الطبرى .

أبناء يعقوب يعرضون على أبيهم الذهاب إلى مصر

.....

يـعـقـوبُ مـعَ أولادِه صـــاروا مـعًا مـتـآلـفين ٤٠
الحـب صار يـــودهم كـانـوا مـعًا متـبـاعديـن ٤١
قَالـوا : فـهيَّا يـا أبـانـا ، نأتِ أرضَ الخـالديـن ٤٢
هـيا إلـى مـصرَ الـعزيـزةِ مـوطنِ المتـحضّريـن ٤٣
الـنـيلُ أعـطَى أهـلَهـا أمـنًا ، فعـاشُوا راغديـن ٤٤
فيـهَا حبـيبُك يـوسف ، هـو خازنُ المـالِ الأمين ٤٥
قد قالَ : هـاتوا لى أبِى ، والأهلَ كُلاً مـسرِعين ٤٦

الحب والود ، والألفة والسرور والتفاهم . . كل هذه الصفات هبطت على بيت آل يعقوب عليه السلام . . وذلك بعد كراهة متبادلة بين الشيخ وأولاده . . بسبب ضياع يوسف من قبل . . كان أسلوب التفاهم محدودًا ، بين الشيخ وأولاده . . فهو لم يبرئ أولاده من عمل شىء غير طبيعى ، ضد يوسف . . وهم أيضًا يشعرون بأن أباهم غير راض عنهم كل الرضاء . أما الآن ـ وقد تبين أن يوسف لا يزال حيًا ـ فقد ذهبت الأحزان، من قلب الشيخ، وأيضًا ذهبت معها الكراهة من قلب الشيخ . . فقد كانوا فى ظل الكراهة متباعدين، وحل محلها الحب والسرور والتفاهم، فصاروا إذن متآلفين متقاربين .

أما يعقوب عليه السلام فقد بدا عليه نشاط غير عادى، وصار وجهه مشرقًا بالابتسام، بعد أن كان دائم العبوس، ولم لا! فلقد صدق حدسه أخيرًا، وتبين أن حبيبه الغالى يوسف، لا يزال على قيد الحياة ، بل هو مع بقائه حيًا ، يتمتع بالجاه والسلطان . وقد اغتنم أبناؤه فرصة ابتهاجه ، فقالوا : يا أبانا . . ! إنا سنعرض عليك أمرًا . . ! فنرجوا أن نجد لديك القبول والموافقة عليه . . ! قال الشيخ : ما هو ؟! قالوا : أن نترك هذه الأرض ، ونرحل إلى مصر ، إلى حيث الخير والعز . . فلنترك هذه الأرض الصحراء الجرداء ، ونذهب إلى مصر . . أرض النيل الخالد ، أرض الحضارة والسيادة . . النيل أعطى الأمان لأهل مصر ، فهم فى رغد من العيش ، لا يخافون الجوع . ولا غرو فتلك هى رغبة حبيبك يوسف . . وهو كما علمت ، خازن المال الأمين ، فى مصر كلها . . هو الذى قال : هاتوا أبى وهاتوا كل آل يعقوب ، فلا يبقى أحد من آل يعقوب فى الصحراء القاحلة هنالك .

قافلة آل يعقوب فى طريقها إلى مصر

.....

يعقُوبُ مع أبنائه قد قرَّروا متكاملين ٤٧
أن يرحَلوا عن أرضِهم ، أرضِ الجدودِ الأولين ٤٨
تركُوا منازلَهم لأرضِ النيلِ صَاروا ذاهبين ٤٩
وصَلوا هنالِكَ حيثُ كانَ الحبُّ وضَّاءَ الجَبين ٥٠

لقد استمع يعقوب عليه السلام حديث أولاده ، حيث عرضوا عليه أمر الرحيل إلى مصر . . وأن يتركوا تلك البلاد التى ضنت عليهم ، بأدنى مطالب الحياة : هو الطعام .

بيد أن يعقوب ، لم يستقبل هذا الأمر بإعجاب وتحمس . . بل استقبله بفتور . . ذلك لأنه أمر لم يفكر فيه من قبل . . لم يناقشه مع نفسه يوما ما . . لم يَدُرْ بخلده يومًا ما ، أن يهاجر من موطنه . . موطن الآباء والأجداد . . مسقط الرأس . . مدرج الطفولة ومربع الصبا . . وفيه ما فيه من ذكريات عزيزة . . إنه قرار يحتاج إلى روية وأناة. لمح أبناء يعقوب ، ما يدور فى أعماق أبيهم ، بعد ما طرحوا عليه أمر الرحيل من أرض كنعان إلى مصر . . فأخذوا يناقشونه بهدوء ، ودار حوار بينه وبينهم ، انتهى بإقناع الشيخ بفكرة الرحيل إلى أرض مصر .

لقد اقتنع الشيخ أخيرًا، بالرحيل من أرض كنعان . . أرض الآباء والأجداد، وفعلاً، لقد تحركت القافلة صوب مصر، يحدوها حنين جارف فى قلوب الجميع ، لا سيما قلب يعقوب، الذى يريد أن يطير بغير أجنحة ، مسارعًا لرؤية ولده الحبيب ، يوسف ، الذى هدته الأحزان ، بسبب غيابه . . وقد ظل ملء خياله ووجدانه ، طيلة مدة غيابه قيل هى: أربعون سنة . ويا للعجب !! فيعقوب عليه السلام لم يشك خلال تلك السنين الطويلة ، فى أن ولده يوسف ، لا يزال حيًا . وبعد مسيرة طويلة وشاقة ، قطعتها القافلة ، متجهة من الشام إلى مصر ، وصلوا إلى مشارف مصر . . مصر التى تحوى بين أحضانها الأحبة . . لاسيما يوسف الذى يتلألأ النور من جبينه ، ومن منطقه أيضًا .

يوسف يستقبل أبويه وإخوته

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

دخلوا على الصِّدِّيق قد كَانوا له متشَوِّقين ٥١
أعطَى إلى ابويه قُرْبًا . ثم برّ المؤمنين ٥٢
بل قالَ : مرحى ، وادخلوا مصرَ العزيزَة آمنين ٥٣

لقد واصلت القافلة مسيرتها، فى قرى مصر وضواحيها ، حتى وصلوا المكان الذى يضم يوسف الصديق،هو مقر الدولة وكل الدوائر الحكومية . كان يوسف قد أعد لأبيه وإخوته استقبالاً ، يليق بمكانته هو ، لكونه ذا مكانة مرموقة فى الدولة . . إنه خازن المال الأمين . . وتلك كانت أعظم وأرفع منزلة يتبوأها إنسان فى مصر . وفعلا لقد تم استقبال أبويه وإخوته،وتم الاحتفاء بهم ، وتكريمهم على أعلى مستوى رسمى وشعبى. وقد كان يوسف عليه السلام، بين المستقبلين ، وعلى الأصح على رأس المستقبلين ، فى موكبه المهيب ، تحفه الخدم والجند ، عليه مهابة الملوك ، وعظمة السلطان . . فلما رأى أبويه وإخوته مقبلين ، ترجل ، وسعى نحوهم على قدميه ، مبالغة فى تحيتهم ، وإظهاراً لتعظيمهم فى أعين المستقبلين لهم . تعانقوا وتصافحوا ، ولا غرو فالشوق يتأجج فى جوانح كل منهم . . وقد كان المستقبلون يحيونهم ، ويلوحون بالأيدى . احتضن يوسف أبويه وقال لهم : مرحبًا بكم فى مصر ، ادخلوها بأمن وأمان ، أنتم الآن بين شعب مصر العريق المضياف . . ولسوف تجدون فى مصر أهلاً ، وتنزلون منزلاً سهلاً .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « فلما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » أى أنهم حين دخلوا على يوسف ، فى مجلس حكمه وسلطانه ، أخذ بيد أبويه ، وضمهما إليه ، ومن ورائهما إخوته ، وحياهما تحية السلام والإكرام » (١) .

قال ابن كثير فى تفسيره : «يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوا بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه ، وأكابر الناس ، بالخروج مع يوسف ، لتلقى نبى الله يعقوب عليه السلام » .

---

(١) القصص القرآنى .

يعقوب وأولاده يسجدون ليوسف تعظيمًا

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

لما اطمأنُّوا إذ بهم خرُّوا جميعًا ساجدين ٥٤
كان السجُود تحيةً ، لا ، لم يكونوا عابدين ٥٥
أو ربّما سجَدوا لربِّ العرشِ سجدةَ شاكرين ٥٦
العرشُ قد جلسُوا عليهِ ، بأمرِ يوسفَ عن يقين ٥٧

وصل موكب المحتفى بهم ـ يعقوب عليه السلام وأبناؤه ـ إلى قصر الملك الذى يضم كبار رجال الدولة . وهنالك حينما وجدوا أنفسهم، وسط قصر عظيم، فيه الأرائك مصفوفة، والفُرش وأنواع الطنافس الثمينة، تغطى أرض القصر ، وتلك لعمر الله هى أروع مظاهر الأبهة ، والجاه والسلطان ، أدركوا أن يوسف عليه السلام يعيش فى هذا القصر ، وقد تهيأت له كل أسباب الحياة، من حيث الرفاهية والترف . . حينئذ لم يتمالكوا أنفسهم . . فخروا ساجدين جميعهم . نعم ، لقد سجدوا جميعًا . . هكذا أخبر القرآن الكريم . . فمن أى أنواع السجود كان سجودهم؟! أهو سجود عبادة؟! وهذا بعيد جدًا . . أم هو سجود تشريف وتحية ؟! وهذا هو الأرجح ، قيل : كان هذا معمولاً به عندهم . . كانوا يحيون العظماء هكذا بالسجود . ثم أجلس يوسف عليه السلام أبويه على سرير الملك ، زيادة فى إكرامهم ، وإشعارهم بمكانتهم لديه .

قال ابن كثير فى تفسيره: « ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعنى السرير، أى أجلسهما معه على سرير . ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وقد كان هذا سائغًا فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير ، سجدوا له . ولم يزل هذا جائزًا ، من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام . . فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى » .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ تحية وتكرمة له ، فإن السجود كان عندهم ، يجرى مجراها ، وقيل معناه : خروا لأجله سجدًا لله شكرًا » . ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أجلسهما معه على العرش ـ السرير ـ أى أبواه وإخوته ، سجدوا له سجود انحناء ، لا وضع جبهة ، وكان تحيتهم فى ذلك الزمان » (١) .

(١) تفسير الجلالين .

رؤيا يوسف القديمة تتحقق

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

لما رآهُم يوسفٌ سجَدوا سجودَ الخاشعين ٥٨
هتفتْ خواطرُه ببعضِ الذكرياتِ السابقين ٥٩
فتذكَّرَ الرؤيا التى أودتْه للكيدِ المشين ٦٠
من ثَم قال مخاطبًا لأبيه بالقولِ المبين ٦١
هذى هى الرؤيا القديمةُ فُسِّرتْ للعَالمين ٦٢
رؤياى كانتْ يا أبِى حقًا شبيهًا باليقين ٦٣

أما يوسف الصديق ، فقد امتلأ سعادة وسرورًا ، وهو يرى أبويه وإخوته وهم يسجدون له . . ولا غرو فتلك كانت هى التحية التى يؤديها سواد الشعب ، للعظماء من الحكام والملوك . إن هذا السجود أشبه بسجود العبادة، لا فرق بينهما . . فهذا سجود وذاك سجود، وإنما الفرق فى النية فحسب . وتهيج الخواطر والذكريات ، فى رأس يوسف الصديق عليه السلام ، تأثرًا بهذا الموقف ، وتقفز أحداث الماضى فى ذاكرته ، فَتَمثُل كأنها قد حدثت الآن . . أو من الممكن أن تقول : حينئذ عاد بذاكرته إلى الوراء ، يجتر أحداث الماضى القديم . . فتذكر رؤياه التى كان رآها وهو صبى صغير ، وقصها على أبيه ، والتى كانت سببًا فى حقد إخوته عليه، فمن ثم كادوا له .

فهتف يوسف قائلاً لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى أرأيت يا أبت ! هذا هو تأويل رؤياى التى كنت رأيتها ، وأنا صبى صغير ، وكان بسببها ما كان ! إذن فقد كانت رؤيا صدق وحق . . وها هى ذى قد تحققت .

قال صاحب القصص القرآنى : «وإذ يشهد يوسف هذا المنظر ، يذكر رؤياه التى رآها عندما كان صبيًا ، والتى قصها على أبيه فى قوله : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ثم ذكر ما قاله له أبوه إذ ذاك : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ وها هو ذا يوسف يرى تأويل رؤياه واقعًا محسوسًا بعد أن رآها فى تأويل أبيه لها ، وعدًا بخير عظيم ، ودرجة عالية عند الله تعالى ، إذ يرى يوسف هذا كله يقول لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى أن هذه الرؤيا التى رآها يوسف فى صباه، قد تحققت اليوم ، إذ قد جعلها الله تعالى رؤيا صادقة، لأن فى الرؤى ما يصدق وما يكذب، ورؤى الأنبياء لا تكون إلا صدقًا، ويوسف وإن لم يكن نبيًا حين رأى تلك الرؤيا ، فإنه مرشح للنبوة ، لابس إهابها منذ ولد » .

يوسف يعترف بفضل الله عليه

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ .

قد تمَّ ما قدْ شاءه المولَى ، وكنَّا غافلين ٦٤
اللهُ أكرمَنِى فأخرجَنِى من السِّجنِ المهين ٦٥
أيضًا وجاء بكُم ، وكنتُم فى البداوةِ ماكثين ٦٦
قد كانَ للشيطانِ نزغٌ فى قلوبٍ مظلمين ٦٧
بينى وبينَ بنِى أبِى ، قد كانَ نزغٌ للعين ٦٨

يستطرد يوسف الصديق عليه السلام فى حديثه لأبيه فيقول : هكذا قد تم ما أراده الله عز وجل .. وما قُدر يكون .. ولا يقع فى كون الله إلا ما أراده الله .. أما ما لم يقع ، فذلك شىء مخبوء فى ضمير الغيب ، لا ندريه . ولا غرو فهذه المحنة كانت ابتلاء لنا جميعًا .. فمنا من خرج من هذا الابتلاء ، كالذهب الإبريز ، لم تزده المحنة إلا إيمانًا بربه ، وبقضائه وقدره ، ومنا من كان دون ذلك ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ . وقد أكرمنى ربى ، فأخرجنى من السجن عزيزًا مكرمًا .. ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ . ثم أراد الله عز وجل ، فساقتكم الأقدار ، فجئتم من البادية للإقامة فى مصر ، وتلك لعمر الله نعمة من الله ، تستوجب الشكر .. لأن الإقامة فى المدينة ، خير منها فى البادية ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من بدا جفا » لقد جئتم وافدين إلى مصر كغيركم أول الأمر ، تطلبون الميرة ، حيث عم القحط كل بلاد الشرق ، خلا مصر .. مصر الغنية بنيلها الخالد ، يمدها بأسباب الحياة ، إنه شريان الحياة فى مصر . وقد كان الشيطان لعنه الله ، لعب دورًا هامًا ، فأفسد بينى وبين إخوتى ، وقد نجح فى ذلك عليه اللعنة .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : فى « القصص القرآنى » « وفى قوله : « ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ إشارة إلى التحول من البدو إلى الحضر ، يُعد من النعم التى تستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ، وذلك لما فى حياة البدو من جفاء وغلظة وجاهلية ، على خلاف حياة الحضر وما فيها من نعم كثيرة ، وخير عظيم ، لمن يرعى حق هذه النعم ، ويؤدى شكر هذا الخير » .

يوسف يشكر مولاه

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .

حمدًا إله العرشِ إنك ناصرُ المستضعَفين ٦٩
أنتَ اللطيفُ لما تشاءُ وراحمُ المسترحمين ٧٠
أعطيتنى مُلكًا وفضلاً ، فوقَ حُلْمِ الحَالمين ٧١
أعطيتَنى علمًا لتفسيرِ الرؤَى للنائمين ٧٢

لا زال يوسف الصديق، يتحدث إلى أبيه، حديثًا فيه إيمان، وفيه تقوى، وفيه عبر وعظات . . لقد صقلته الأحداث ، وصهرته المصائب والابتلاءات ، فصار لا ينطق إلا بالحكمة . . ولا غرو فهو قد أصبح نبيًا ، والأنبياء لا ينطقون إلا بما فيه معنى وحكمة . فحديثهم إما أن يكون أمرًا بخير ، أو نهيًا عن شر ، أو دعوى إلى الإيمان بالله وتوحيده وتعظيمه فيقول يوسف : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ نعم، إن الله عز وجل ذو لطف ورحمة . . وإذا ما أراد أمرًا ، فإنه يهيئ له الأسباب، ويقدر الأقدار ، وييسر السبل لتنفيذه . . إنه العليم الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وقضائه وقدره . ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ . إن يوسف عليه السلام يشكر ربه على ما أسبغ عليه من كريم نعمه ، فلقد تولى أرفع مكانة فى ملك مصر . . إنه يعترف بفضل ربه عليه ، إذ علمه تأويل الأحلام ، وربما يكون قصده ، النبوة .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره :« ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ لطيف التدبير له ، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ، ويتسهل دونها ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بوجوه المصالح والتدبير ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى يفعل كل شىء فى وقته ، وعلى وجه يقتضى الحكمة .

روى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه ، فلما أدخله خزانة القراطيس ، قال: يا بنى!ما أعقل ؟! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلىّ ،على ثمانى مراحل؟! قال أمرنى جبريل ، قال : أو ما تسأله ؟! قال : أنت أبسط منى إليه ، فسأله ، قال جبريل : الله أمرنى بذلك ، لقولك : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ قال: فهلا خفتنى ؟! ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ بعض الملك ، وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ الكتب والرؤيا ، ومن أيضًا للتبعيض ؛ لأنه لم يؤت كل التأويل » . .

يوسف يتضرع إلى مولاه

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١)﴾

يا خـالقـًا لسمـائنا ولأرضنـا والـعَـالمين ٧٣
أنت الـولىّ ومـلجأى ، لا شـكَّ فى دنـيَا ودين ٧٤
يا رب خـذنى مـسـلمًا وتـوفنـى فى الـصالحـين ٧٥

﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (١٠١) ﴾ أى يا خالق السماوات والأرض ، ومـبدعهما فى أحسن وأجمل صورة ، وخالق ما بينهما مـن عوالم ، بحيث لا يغيب عن علمك شىء من أحوالهم ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أنت ربى وخالقى ، وإلـيك أمرى فى كل أحوالى، أنت حولى وقوتى، لا ملجأ لى إلا أنت، فى هذه الدنيا المملوءة بالأعاجيب.. وفى الآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مـن أتى الله بقلب سليم . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالـصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ . أى أسألك يـا مولاى ، أن تميتـنى على الإسـلام . . إنه الدين الـقيم الذى ارتضـيته لعبـادك ، وأرسلت به رسلـك .واجعلنى يـا رب فى عداد عبادك الصالحين ، الذين سوف يفوزون بالتـكريم يوم القيامة ، ويجوزون على الصراط وهم آمنون ، ويقفون فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله .

قال الأستـاذ عبد الكريم الخطـيب فى « القصـص القرآنى »: « وبهذه الابـتهالات والضراعات، وبتلك التسـابيح والصلوات،يستقبل يوسف هذه النعـم التى أنعم الله بها عليه.. فـإنه بعد أن سوى حسـابه مع أبيه وإخوتـه،وبعد أن وضع الأمور فى نـصابها بينهم وبينه ، وأعطى كل ذى حق حقه ، خلص إلى مناجاة ربه، وإلى رفع آيات الحمد والشكران له » .

قال ابن كثير فى تفسيره: « هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كـما أتم نعمته عليه فى الـدنيا ، أن يستمر بها عـليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه . . قاله الضحاك . . وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين » .

ختام قصة يوسف

.....

تلكُم حكـايةُ يوسفَ الصِّديقِ فـى الذكْرِ الحكِيم ٧٦
هـىَ قصـةٌ عصْمَاءُ جـاءتْ كى تجـيبَ الـسائلـين ٧٧
فـيهَا عـظـاتٌ ، فاقْرأوهـا تسْتـفـيدُوا عـن يَقِين ٧٨

هذه قصة يوسف الصديق عليه السلام . . صغتها شعرًا من واقـع الآيات القرآنية ، التى انتظـمت أحداث القـصة . . ثم ترجـمت هذا الشعـر ، إلى نثر ، بـأسلوب بعـيد عن التكلف، مستعينًا بآراء المفسرين ، وكبـار رجال الفكر من غير المفسرين . ولا غرو فهى قصة فريدة ، لم يرد ذكـرها فى القرآن الكريم ، إلا فى تلك السورة الـتى سميت باسم صاحب الـقصة وبطلـها . . يوسف . وسبـب عدم ذكرها فـى أكثر من سورة كـما هو الشأن فى قصص الأنبـياء . . كقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسـى وغيرهم ! هى أنها جاءت إجابة على تساؤلات كانت مطروحة، وتتردد على كثير من الألسنة فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ . إنها بلا شك قصة عجيبة، فيها من العبر والعظات ما لو تدبرها الناس، لكانوا إلى السعادة أقرب منهم إلى الشقاء، ولأخذت بأيديهم إلى رحاب الإيمان، لأن الله عز وجل، حينما يبتلى عباده، فإنه يكون قد هيأهم لما فيه خيرهم ومصلحتهم. ولنقتطف من كلام الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، بعض السطور ، المشرقة بالمعانـى الفياضة إذ يقـول : « فمن كان يقع فى تـقديره أن تلك الأحداث الـتى وقعت ليوسف: من إلقائه فـى الجب، إلى وقوعه فى يد جماعة من التجار، إلـى بيعه لرجل من مصر، إلى كيد امرأة العزيز له، إلى تآمرها مع جماعة النسوة عليه ، إلى إلقائه فى السجن بضع سنين، من كان يقع فى تقديره، أن هذه الأحداث، ينسج من خيوطها عرش، ويصاغ من حصاها تاج، ويولد مـن تصارعها ملك يجلس على هذا العرش الـعظيم، ويتوج بهذا التاج الكريم؟! إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خبير، يمسك الأسباب بلطفه، ويجريها بحكمته، فإذا هى طوع مشيئته ، ورهن إرادته، فيجعل من المكروه ـ فى تقديرنا ـ محبوبًا، ومن المحبوب مكروهًا ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾ إلخ [البقرة: ٢١٦] .

تم الانتهاء من مراجعة هذا الكتاب، لتقديمه للمطبعة، مساء الخميس السادس من شهر ذى الحجة ١٤١٣هـ الموافق السابع والعشرين من شهر مايو ١٩٩٣ فإن كنت قد أحسنت، فبتوفـيق من الله عز وجل ، وإن كـنت قد أخطأت فى شىء مـن آراء أو أقوال فى هذا الكتاب، فذلك منى، ولما يخلق بعد الذى لا يخطئ. . ورحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى. ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود].

ثبت المراجع

١ ـ تفسير الإمام ابن كثير .

٢ ـ تفسير الإمام القرطبى .

٣ ـ تفسير القاضى البيضاوى .

٤ ـ تفسير الجلالين .

٥ ـ تفسير المنار .

٦ ـ تفسير الكشاف .

٧ ـ تفسير صفوة التفاسير .

٨ ـ تفسير مفاتيح الغيب .

٩ ـ كتاب : قصص الأنبياء لابن كثير .

١٠ ـ كتاب : قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار .

١١ ـ كتاب أنبياء الله أحمد بهجت .

١٢ ـ كتاب القصص القرآنى عبد الرحمن الخطيب .

١٣ ـ كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى .

١٤ ـ السيرة النبوية ابن هشام .

١٥ ـ السيرة النبوية ابن كثير .

١٦ ـ سبل الهدى والرشاد للصالحى .

١٧ ـ تغريدة السيرة النبوية للمؤلف .

١٨ ـ تاريخ الرسل والملوك الطبرى .

١٩ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

٢٠ ـ صحيح مسلم بشرح النووى .

٢١ ـ إغاثة اللهفان ابن قيم الجوزية .

٢٢ ـ تأملات فى سورة يوسف ، الدكتور باجوده .